المحاضرة الأولى

مفهوم الثقافة العربية:
الجذور والامتدادات الحضارية

إعداد :الدكتورة ريما عبدالكريم رجوب

جامعة حماه |

المعهد العالي للغات/ دبلوم تأهيل وتخصص

العام الجامعي 2025-2026

— ✦ —

ملخص المحاضرة

تتناول هذه المحاضرة الإشكاليةَ الجوهريةَ المتعلقة بتعريف الثقافة العربية 'وتحديد ملامحها الأساسية، وذلك من خلال رصد التطور الدلالي لمفهوم 'الثقافة في الفكر الإنساني عموماً، ثم الانتقال إلى خصوصية السياق العربي بجذوره التاريخية والحضارية .تستكشف المحاضرة المكونات الأصيلة لهذه الثقافة من لغة ودين وموروث شعري وفلسفي، مع الإشارة إلى حالات التفاعل والتلاقح مع الحضارات الأخرى عبر العصور .وتُختتم بمناقشة نقدية لإشكاليات الهوية والانتماء في ضوء التحولات الراهنة.

أولاً :مقدمة ـــ في إشكالية المفهوم

يُعدّ مفهوم 'الثقافة 'من أكثر المفاهيم تعقيداً وتشعباً في الفكر الإنساني، إذ تتداخل في تعريفه أبعاد أنثروبولوجية وسوسيولوجية وفلسفية ولغوية، وقد رصد بعض الباحثين ما يزيد على مئة وستين تعريفاً لهذا المصطلح في الأدبيات الغربية وحدها .وحين نُضيف إلى ذلك الصفة العربية فإننا نكون أمام مسألة أكثر خصوصية وتعقيداً في آنٍ واحد.

فالثقافة العربية ليست مجرد مجموع الإنتاج الفكري والأدبي والفني لشعوب تتكلم اللغة العربية، بل هي منظومة متكاملة من القيم والرموز والتصورات والممارسات التي تشكّلت عبر آلاف السنين في بيئة جغرافية متنوعة، وتفاعلت مع حضارات شتى امتصّتها أحياناً وأثّرت فيها أحياناً أخرى وتعايشت معها في أحيان ثالثة.

وتزداد الإشكالية تعقيداً حين ندرك أن ثمة جدلاً قائماً بين الباحثين حول ما إذا كانت الثقافة العربية وحدةً متماسكة تمتد من المحيط إلى الخليج، أم أنها مجموعة ثقافات فرعية تتشارك في المشترك اللغوي والديني دون أن تتطابق في التجربة التاريخية والوجدانية.

ثانياً :التطور الدلالي لمفهوم الثقافة

◆ 1. في الجذر اللغوي العربي

تعود كلمة 'ثقافة 'في اللغة العربية إلى الجذر)ث-ق-ف (الذي يدل أصلاً على معاني التقويم والحذق والمهارة .يقول ابن منظور في لسان العرب' :ثَقِفَ الشيءَ ثَقَفاً :حذقه وفهمه بسرعة .'ومن هنا جاءت كلمة مُثَقَّف للدلالة على المُقَوَّم من الرماح والسهام، ثم توسّع المعنى ليشمل كل من قُوِّمت أخلاقه وشُحِذت مداركه.

ويلاحظ الباحث اللغوي محمد أركون أن دخول المصطلح بمعناه الاصطلاحي الحديث إلى العربية جاء في سياق حركة الترجمة والتحديث في القرن التاسع عشر الميلادي (culture) عشر الميلادي، مقابلاً للمصطلح الفرنسي الدالة (cultura) اللذين ينحدران بدورهما من اللاتينية (culture) والإنجليزي على الفلاحة ورعاية الأرض، ثم انتقل المعنى استعارياً إلى رعاية العقل وتنميته.

◆ 2. في الفكر الغربي الأنثروبولوجي

عام 1871م (Edward Tylor) قدّم الأنثروبولوجي البريطاني إدوارد تايلور تعريفاً أصبح مرجعاً أساسياً (Primitive Culture) في كتابه "الثقافة البدائية" في الحقل الأنثروبولوجي، إذ وصف الثقافة بأنها: "ذلك الكل المركّب الذي يشمل المعرفة والمعتقد والفن والأخلاق والقانون والعادات وسائر القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع".

وقد جاء تعريف تايلور ثورياً في عصره لأنه تجاوز المفهوم النخبوي للثقافة الذي كان سائداً في الفكر الأوروبي، والذي يحصر الثقافة في الفنون الرفيعة والآداب العالية، ليجعلها ظاهرة إنسانية شاملة تخصّ كل المجتمعات دون استثناء.

◆ 3. الثقافة في الفكر العربي المعاصر

تتباين مقاربات المفكرين العرب المعاصرين في تعريف الثقافة وتحديد مكوناتها. فبينما يُركّز طه حسين في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" على البعد الحضاري والتحديثي للثقافة مربوطاً بالنموذج الإنساني الغربي ذي الجذور اليونانية والرومانية، يذهب محمود محمد شاكر في "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا" إلى أن

الثقافة العربية كيان متميز متكامل ينهض على الإسلام والعربية بوصفهما قطبَيه الأساسيَّين.

أما عبد الله العروي فيطرح في 'مفهوم الثقافة' تعريفاً إشكالياً إذ يرى أن الثقافة في السياق العربي 'مجال تنازع بين ثلاثة مشاريع: التراثي والسلفي والتحديثي'، ولا يمكن فهمها خارج هذا التوتر الدائم.

ثالثاً: المكونات الأساسية للثقافة العربية

◆ 1. اللغة العربية: وعاء الثقافة وروحها

تحتل اللغة العربية مكانةً محورية لا نظير لها في أي ثقافة أخرى، فهي ليست أداةَ تواصل وحسب، بل هي وعاء الهوية والذاكرة والرؤية إلى العالم. ويذهب الباحث اللغوي بنيامين لي وورف إلى أن اللغة تُشكّل طريقة التفكير لا مجرد التعبير عنه، وهو ما يصدق بشكل استثنائي على اللغة العربية التي أوجدت نظاماً معرفياً متكاملاً من المنطق اللغوي والبلاغي والنحوي.

وقد أسهمت قداسة اللغة العربية بوصفها لغة القرآن الكريم في صون بنيتها الأساسية عبر أربعة عشر قرناً على نحو لا مثيل له في تاريخ اللغات البشرية. يقول المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير: 'إن العربية الفصحى تُعدّ ظاهرة فريدة في التاريخ اللغوي الإنساني من حيث ديمومتها واستمرارها'.

◆ 2. الإسلام: البعد الروحي والحضاري

لا يمكن فهم الثقافة العربية بمعزل عن الإسلام الذي جاء ليُعيد تشكيل الوجدان العربي ويرفعه من حالة القبيلة والوثنية إلى آفاق الإنسانية الكونية. غير أن

المسألة تزداد تعقيداً حين يُقرّ الباحثون بوجود ثقافة عربية سابقة على الإسلام (الثقافة الجاهلية وثقافة إسلامية لا تقتصر على العرب).

ويتجنّب الباحث المغربي محمد عابد الجابري هذا الإشكال بتمييزه الدقيق بين الثقافة العربية الإسلامية 'بوصفها نتاجاً تاريخياً مشتركاً، وبين 'الثقافة العربية الراهنة 'التي تعمل في سياق مختلف جذرياً .ويرى أن البنية العقلية العربية شُكِّلت بثلاثة أنظمة معرفية كبرى :البيان (النظام اللغوي)، والعرفان (التجربة الروحية)، والبرهان (المنطق الفلسفي).

◆ 3. الشعر :الديوان المقدّس

قال العرب قديماً' :الشعر ديوان العرب'، ولم يكن هذا توصيفاً أدبياً وحسب، بل إقراراً بأن الشعر كان سجلّ الحياة العربية في أبعادها كلها :الحروب والمفاخر والأنساب والحكمة والمعتقد والعشق والرثاء .وقد أدّى الشاعر في المجتمع العربي القديم وظيفة تتجاوز الوظيفة الأدبية المجردة لتشمل وظيفة المتحدث الرسمي باسم القبيلة والمؤرخ والحكيم.

وحين نتتبع تاريخ الشعر العربي من القصيدة الجاهلية إلى قصيدة النثر المعاصرة، نجد أمامنا خيطاً سردياً متصلاً يعكس تحولات الوجدان العربي ورؤيته للوجود والجمال والحق والسلطة .يُثبت هذا الخيط أن الشعر لم يكن يوماً ترفاً أدبياً بل كان دائماً في قلب الحياة الثقافية العربية.

رابعاً :الجذور الحضارية والامتدادات التاريخية

◆ 1. ما قبل الإسلام :الجذر الأول

تمتد جذور الثقافة العربية إلى ما قبل الإسلام بقرون طويلة .فقد قامت حضارات عريقة على الأرض العربية كحضارة سبأ في اليمن، وحضارة الأنباط في شمال شبه الجزيرة، وحضارة تدمر في الشام .وقد أفرزت هذه الحضارات إنتاجاً فكرياً وفنياً وأدبياً غنياً، وإن كانت الأمية السائدة والاعتماد على الرواية الشفهية قد حالا دون وصول كثير منه إلينا بصورة مباشرة.

،غير أن الموروث الشفهي، من خلال الشعر الجاهلي والخطابة والأمثال والحكم يُمثّل ثروة حضارية استثنائية .فالمعلقات السبع، على سبيل المثال، ليست مجرد قصائد بل وثائق اجتماعية وتاريخية تكشف عن نظام القيم والتصورات والعلاقات في المجتمع العربي الجاهلي.

◆ 2. الحضارة العربية الإسلامية :المد الكبير

شهدت الحضارة العربية الإسلامية في الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والثالث عشر الميلاديين أزهى عصورها، إذ تحوّلت المدن العربية الكبرى كبغداد ودمشق وقرطبة والقاهرة إلى مراكز إشعاع حضاري عالمي لا نظير لها في عصرها .وقد تجلّى هذا الازدهار في مختلف الحقول المعرفية من فلسفة وطب ورياضيات وفلك وجغرافيا وكيمياء وأدب وفنون.

،وما كان ذلك ليتحقق لولا حركة الترجمة الكبرى في عهد الدولة العباسية وبخاصة في عهد المأمون)813-833م (حين أصبح بيت الحكمة في بغداد مصنعاً حقيقياً لتحويل المعرفة الإنسانية إلى العربية وإخضاعها للنقد والتطوير.

◆ 3. التلاقح الحضاري وظاهرة الاستيعاب

تُعدّ قدرة الثقافة العربية على الاستيعاب والتمثّل من أبرز خصائصها .فهي لم تتعامل مع الثقافات الأخرى بمنطق الرفض الكلي أو الاستسلام الكلي، بل وظّفت ما يتوافق مع منظومتها القيمية وأعادت صياغته في إطار رؤيتها الخاصة .وقد تجلّت هذه القدرة في استيعاب الفلسفة الإغريقية وإعادة طرحها في صياغة إسلامية عربية على يد الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد.

خامساً :إشكاليات الهوية في الثقافة العربية المعاصرة

◆ 1. أزمة الهوية وجدل الأصالة والمعاصرة

تعيش الثقافة العربية المعاصرة في خضم أسئلة هوية حادة تفجّرت بوضوح مع مطلع القرن العشرين ولم تُحسم حتى اليوم .فالمثقف العربي يجد نفسه أمام ثلاثة خيارات متصارعة :الانغلاق على التراث وترسيخه دفاعاً عن الهوية، أو الانفتاح على الحداثة الغربية استجابةً لضغوط التحديث، أو محاولة التوليف بين الاثنين في صيغة تُحقق الأصالة دون الانعزال والحداثة دون الذوبان.

ويُمثّل هذا التوتر روح النقاشات الكبرى التي خاضها المفكرون العرب على مدى القرن الماضي، من جدل محمد عبده ومحمد رشيد رضا حول الإصلاح الديني والنهضة، إلى مناظرات طه حسين والعقاد ومصطفى صادق الرافعي حول مستقبل الثقافة، وصولاً إلى الجدل البنيوي عند الجابري وأركون حول بنية العقل العربي وإمكانات نهضته.

◆ 2. الثقافة العربية في مرآة الآخر

أسهمت النظرة الاستشراقية الغربية إلى الثقافة العربية في تشكيل صورة ملتبسة ومتناقضة عنها .فمن جهة، كرّس المستشرقون الكلاسيكيون من أمثال ديفيد

صامويل مرغليوث وإغناتيوس غولدتسيهر صورةً نمطية تحصر الثقافة العربية في الماضي وتنفي عنها حيوية الحاضر .ومن جهة أخرى، يُقرّ مفكرون غربيون من أمثال روجيه غارودي وجاك بيرك بأصالة هذه الثقافة وعمق إسهامها في الحضارة الإنسانية.

وقد جاء كتاب إدوارد سعيد 'الاستشراق' (1978م (تفنيداً نقدياً لهذه الصورة، إذ كشف عن العلاقة العضوية بين الخطاب الاستشراقي ومشروع الهيمنة الاستعمارية .وقد فتح هذا الكتاب آفاقاً جديدة في دراسات ما بعد الاستعمار وأثار نقاشاً واسعاً حول إمكانية معرفة موضوعية بالثقافة العربية من خارجها.

سادساً :نحو مقاربة منهجية للثقافة العربية

◆ 1. مستويات التحليل الثقافي

يقترح كليفورد غيرتز في كتابه 'تأويل الثقافات' منهجاً وصفياً كثيفاً (Thick Description) للتعامل مع الثقافة يتجاوز الوصف السطحي إلى قراءة الشبكة المعنوية الكامنة خلف الظواهر الثقافية .وهذا المنهج بالغ الأهمية في دراسة الثقافة العربية ذات الطبقات المتراكمة من المعاني والرموز.

ويمكن تمييز ثلاثة مستويات رئيسية في تحليل الثقافة العربية :المستوى الأول هو الثقافة المادية)العمارة والفنون والحرف والملبس والمأكل(، والمستوى الثاني هو الثقافة المؤسسية)التعليم والقانون والسياسة والاقتصاد(، والمستوى الثالث والأعمق هو الثقافة القيمية والرمزية)المعتقدات والقيم والرؤية الكونية والبنى اللاواعية(.

◆ 2. خصوصية الثقافة العربية :الثوابت والمتحولات

تتميز الثقافة العربية بجملة من الخصائص البنيوية الثابتة نسبياً رغم التحولات التاريخية الكبرى .ولعل أبرز هذه الخصائص :مركزية اللغة وقدسية الكلام المكتوب والمنطوق، والطابع الجماعي للهوية في مقابل الفردانية، وثقافة الكرم والضيافة بوصفها قيمة أخلاقية ليست مجرد عادة اجتماعية، والحس الأدبي العميق المتجذّر في الوجدان العربي.

أما المتحولات، فهي تلك الأشكال والتعبيرات التي تتغير بتغير الزمان والمكان دون أن تمس الجوهر .فأسلوب التعبير الشعري تطوّر من القصيدة العمودية إلى شعر التفعيلة إلى قصيدة النثر، لكن الوظيفة الثقافية للشعر بقيت ثابتة.

سابعاً :خلاصة واستنتاجات

خلصنا في هذه المحاضرة إلى جملة من النتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً :الثقافة العربية منظومة متكاملة ومركّبة لا يمكن اختزالها في مكوّن واحد، فهي وليدة التفاعل الخلّاق بين اللغة والدين والتاريخ والجغرافيا والتجربة الإنسانية.

ثانياً :تمتاز هذه الثقافة بقدرة استثنائية على الاستيعاب والتوليف دون فقدان هويتها، وهو ما أثبتته تجربة الحضارة العربية الإسلامية الكلاسيكية.

ثالثاً :الجدل بين الأصالة والمعاصرة ليس أزمة بل مظهر طبيعي لثقافة حية تسعى إلى تجديد نفسها، والحل لا يكمن في الانتصار لأحد الطرفين بل في الحوار المنتج بينهما.

رابعاً :الدراسة الموضوعية للثقافة العربية تستوجب تجاوز الأحكام المسبقة سواء أكانت تمجيداً مطلقاً أم نقداً مُفرطاً، واعتماد المنهج التحليلي الرصين الذي يُنصف هذه الثقافة في ضوء سياقها التاريخي والحضاري.